

الإباضية : الطائفة والمذهب

أ.د. عبد الفتاح أحمد الفاوى*

من اليسير أن يثبت الباحث علاقة الإباضية بالخوارج تاريخيا لكن عسير عليه بعد ذلك أن يثبت تبني الإباضية لمذهب الخوارج لأن الإباضية في ذلك إلى المتكلمين من معتزلة وأشاعرة أقرب منهم إلى الخوارج كما ستحدثنا صفحات هذا البحث .

(أ) طائفة الإباضية :

إلى عبد الله بن أباض^(١) تنتسب طائفة الإباضية وقد اختلف مؤرخو الفرق في هوية ابن إياض فبينما يذهب الشهرستاني إلى أنه هو الذي خرج أيام مروان بن محمد

* أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

(١) عبد الله بن إياض بن تيم اللات بن ثعلبة التميمي من بني مرة بن عبيد رهط الأسنف ابن قيس ، العقود الفضية ص ١٢١ . وهناك خلاف بين الإباضية حول فتح همزة إياض أو كسرهما فالإباضية في عمان يفتحون الهمزة وبذلك تصبح النسبة إلى أباض «أباضية» ، وفي شمال أفريقيا يكسرون الهمزة وتصبح النسبة « إياضية » .

آخر خلفاء بنى أمية^(١) يذهب الطبرى إلى أن ابن إياض كان مع نافع بن الأزرق وأنه انشق عليه^(٢). وكان نافع قد دعا عبد الله بن إياض إلى معتقده فى تكفير القعدة ، والقول بشرى مخالفهم ، واستباحة دماهم ، وقتل أطفالهم ، وسبى نسايتهم ، و غنيمة أموالهم فلم يوافق عبد الله وقال : صدق نافع بن الأزرق لو كان القوم مشركين ، لكن القوم براء من الشرك فهم كفار بالنعم والأحكام ولا يحل لنا إلا دماؤهم وما سوى ذلك من أموالهم فهو حرام علينا^(٣).

والإباضية أنفسهم يؤيدون ما ذهب إليه الطبرى ويقولون إن ابن إياض ظهر فى أيام معاوية وعاش إلى زمن عبد الملك بن مروان وكان فى أول أمره مع نافع بن الأزرق وأنه انشق عليه^(٤).

وليس صحيحاً أيضاً عند الإباضية ما ذهب إليه المقرئى^(٥) من أن الإباضية تنسب إلى شخص يدعى الحارث بن عمرو فليس من طبقات الإباضية ولا كتب تراجمهم ما يدل على صحة النسبة إليه .

فنسبة الإباضية إلى عبد الله بن إياض من الأمور التى لا يختلف عليها الإباضية ولا غيرهم من أصحاب المقالات الأخرى باستثناء قلة قليلة من المؤرخين لا يعتد بها . يقول صاحب مختصر تاريخ الإباضية^(٦) : ظهر المذهب الإباضى فى القرن الأول من الهجرة فهو أقدم المذاهب الإسلامية على الإطلاق إذ إن أمامهم المنسوب إليه « عبد الله

(١) الملل والنحل ١ / ١٣٤ . (٢) تاريخ الطبرى ٥ / ٥٦٦ ، ٥٦٧ .

(٣) سالم بن حميد الحارثى : العقود الفضية فى أصول الإباضية ١٣١ . طبعة دار اليقظة

العربية فى سوريا ولبنان . (٤) السابق ١٢١ ، ١٢٢ .

(٥) المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ٢ / ٣٥٥ دار صادر بيروت .

(٦) أبو الربيع سليمان البارونى : مختصر تاريخ الإباضية ١٩ الطبعة الثانية مكتبة الاستقامة

تونس .

بن إياض التميمي ٥ كانت له مراسلات ونصائح غالية لعبد الملك تحتم عليه أن يعمل بأوامر الشرع فيعدل بالحكم بين الناس ليستوجب الطاعة التي يدعوهم إليها . ويقول المؤرخ الإباضي المعاصر علي يحيى معمر - بعد أن يضع عبد الله بن إياض في قائمة التابعين : عبد الله بن أباض الذي تنتسب إليه الإباضية توفي أواخر أيام عبد الملك ونسب إليه المذهب لأنه كان أكثر ظهوراً في الميدان السياسي ^(١) .

وتحاول كتب الإباضية أن تبرئ عبد الله بن إياض من أعمال الخوارج وحروبهم وتصوره بأن لم يخض في حروب الخوارج التي كانت على أشدها آنذاك وأنه اكتفى بأن دخل في جدال عنيف وصراع فكري مع الأمويين والخوارج على حد سواء فأنكر على الأمويين ظلمهم للناس وعدم إقامتهم العدل بينهم ورفض آراء الخوارج الأزارقة في قولهم بشرك مخالفهم وشرك مرتكب الكبيرة ^(٢) .

هذا ورغم ما قام به ابن إياض وارتباط هذه الجماعة باسمه فإن الإباضية يعودون بأصولهم - لا إلى ابن إياض فحسب - بل إلى جماعة من التابعين وتابعى التابعين أيضاً كجابر بن زيد وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة والربيع بن حبيب وغيرهم .

ورغم أن يحيى بن معين يقول عن جابر إنه كان إباضياً فإن ابن حجر يورد عن عزرة ^(٣) قوله : « دخلت على جابر بن زيد فقلت : إن هؤلاء القوم ينتحلونك (يعني الإباضية) فقال أبرأ إلى الله من ذلك » وجابر هذا هو جابر بن زيد الأزدي الجوفي أبي الشعثاء توفي سنة ٩٣هـ في جمعة واحدة مع أنس بن مالك وقيل بل توفي عام ١٠٢

(١) علي يحيى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٣٥٤ الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، مكتبة وهبة - القاهرة .

(٢) العقود الفضية في أصول الإباضية ١٢١ .

(٣) هو عزرة بن عبد الرحمن الخزاعي كوفي ثبت كان يختلف إلى سعد بن جبير : انظر ابن حجر : تهذيب التهذيب ١٧ / ١٩٢ ، البخاري : التاريخ الصغير ١ / ٢٢٧ .

هـ وكان تلميذاً لعبد الله بن عباس . وقد قال عنه : لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً من كتاب الله^(١) .

أما أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي فقد توفي في ولاية أبي جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨) وأدرك جابر بن زيد كما أدرك من أدركه جابر من الصحابة تخرج على يديه رجال عرفوا بحملة العلم عن طريقهم انتشر المذهب الإباضي وفقهه في مختلف البلاد الإسلامية^(٢) .

والربيع بن حبيب الفراهدي أصله من عمان أدرك جابر وأخذ عنه وآلت إليه رئاسة المذهب بعد أبي عبيدة وله مسند في الحديث يسمى الجامع الصحيح يعده الإباضية من أقدم كتب الحديث وأصحبها ويذهبون إلى جل ما ورد فيه مذكور في الصحيحين وسائر الكتب الستة من كتب السنة الأمر الذي يؤكد قرب مذهب الإباضية إلى أهل السنة^(٣) .

وانطلاقاً من هذا الارتباط المذهبي للإباضية بأولئك التابعين ممن ذكرنا ومن لم نذكر ينكر الإباضية ارتباطهم بالخوارج ويستنكرون تصنيفهم مع الطوائف المارقة كالأزارقة والصفورية حتى أن صاحب الجامع الصحيح يقول : واعلم أن اسم الخوارج كان في الزمان الأول مدحاً لأنه جمع خارجة وهي الطائفة التي تخرج للغزو في سبيل الله تعالى ، قال عز وجل : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ﴾^(٤) ثم صار دماً لكثرة

(١) انظر تهذيب التهذيب ٢ / ٣٨ ، طبقات بن سعد ١٧ / ١٨٠ .

(٢) أبو يعقوب يوسف بن خلفون المراتي : أجوبة ابن خلفون ١٠٧ . دار النعمان للطباعة والنشر النجف الأشرف ١٩٦٦ .

(٣) العقود الفضية ٩٤ ، وانظر : نور الدين السالمى : اللعة المرضية من أشعة الإباضية ويذهب صاحب هذا الكتاب إلى أن مسند الربيع أصح الكتب بعد كتاب الله وأنه أعلى سنداً من صحيح البخارى .

(٤) سورة التوبة ٤٦ .

تأويل المخالفين أحاديث الذم فيمن اتصف بذلك آخر الزمان . ثم زاد استقباحه حين استبد به الأزارقة والصفرية . فهو من الأسماء التي اختفى سببها وقبحها لغيرها فمن ثم نرى أصحابنا لا يتسمون بذلك وإنما يتسمون بأهل الاستقامة لاستقامتهم في الديانة^(١) .

نقول : صحيح إن الإباضية قد اتخذوا موقفا متشدداً ضد الأزارقة وفارقوهم ولكن هناك ما يشير إلى وجود صلة وثيقة بينهم وبين الخوارج يؤكد هذا ما ورد في رسالة بعث بها ابن إياض إلى عبد الملك بن مروان وفيها يصف سلفه من الخوارج بأنهم « أصحاب عثمان الذين أنكروا عليه ما أحدث من تغيير السنة وفارقوه حين أحدث ما أحدث وترك حكم الله وفارقوه حين عصى ربه ، وهم أصحاب على بن أبي طالب حتى حكم عمرو بن العاص وترك حكم الله وأنكروا عليه وفارقوه فيه ، وأبو أن يقرؤا الحكم لبشر دون حكم كتاب الله ، فهم لمن بعدهم أشد عداوة ومفارقة ، وكانوا يتولون في دينهم وسنتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر بن الخطاب ويدعون إلى سبيلهم ويرضون نسبتهم على ذلك كانوا يخرجون وإليه يدعون وعليه يتعارفون . فهذا خبر الخوارج نشهد الله والملائكة إنا لمن عاداهم أعداء وإنا لمن والاهم أولياء بأيدينا وألستنا وقلوبنا - غير أنا نبرأ إلى الله من ابن الأزرق وأتباعه من الناس ، لقد كانوا خرجوا حين خرجوا على الإسلام فيما ظهر ولكنهم ارتدوا عنه وكفروا بعد إيمانهم فنبرأ إلى الله منهم^(٢) .

من هذا يتبين لنا أن ابن أباض يعتبر نفسه وأتباعه امتداداً للمحكمة الأولى (أوائل الخوارج) فكراً وعملاً وهذا ما يشتهه الإباضية المعاصرون الذين يقولون بأن الإباضية يجمعهم مع الخوارج الآخرين إنكار الحكومة بين على ومعاوية ، بل إنهم يبررون

(١) انظر الجزء الأول من شرح الجامع الصحيح ٥٩ .

(٢) العقود الفضية ١٣٥ .

الخروج ويفرقون بينه وبين الفتنة من حيث إن الفتنة ممنوعة ومنهى عنها والخروج لدفع الظلم ورد العدوان وإزالة الحاكم الظالم المفسد أمر مشروع وواجب^(١). ومن ثم فإنهم يدافعون عن الخوارج الأول ويعتذرون لهم فى الخروج ومهما تكن قوة أو ضعف الإباضية هؤلاء عن الخوارج الأول وعن الخروج فإن آراءهم هذه مع ما ورد فى خطاب ابن إياض السابق الذكر يؤكد الصلة الوثيقة بينهم وبين المحكمة الأولى ويثبت انتماءهم إلى جماعة الخوارج .

وقد تكونت نواة الإباضية فى البصرة ثم انتشروا فى الجزيرة وشمال إفريقيا واستطاعوا أن يكونوا لهم دولة فى عمان استقلوا بها عن الدولة العباسية فى عهد أبى العباس السفاح (١٣٢-١٣٦) وامتد نفوذها إلى جزيرة زنجبار ولا تزال مبادئ الإباضية وأفكارهم هى السائدة فى هذه الأماكن كما أقامت الإباضية لها دويلات فى ليبيا والجزائر فى جبل « نفوسة » ثم فى منطقة « تاهرت » واكتسبوا ثقة البربر وتمكن عبد الرحمن بن رستم أحد حملة العلم الذين تخرجوا على يد أبى مسلم بن أبى كريمة من إقامة دولة بنى رستم والتي استمرت قرابة قرن ونصف (١٦٢ - ٢٩٧هـ) وكانت عاصمتها تاهرت مركزا مهما للدراسات الإسلامية وفقا للمذهب الإباضى^(٢) .

ولانتزاع طوائف وجماعات من الإباضية تنتشر فى بعض واحات الصحراء الغربية فى وادى ميزاب غرب الجزائر العاصمة ويتميز هؤلاء بتمسكهم بتقاليد وتعاليم وآداب المذهب الإباضى فى نظم اجتماعية توارثوها منذ القرن الخامس الهجرى حينما شعر الإباضية بأنه لم يعد بإمكانهم إقامة دولة تحمى جماعتهم فوضعوا هذا النظام حفاظا

(٢) على يحيى معمر : الإباضية فى موكب التاريخ ١ / ٣٣ - ٣٥ دار الكتاب العربى الطبعة الأولى ١٩٦٤ ، وانظر له أيضا : الإباضية بين الفرق الإسلامية ١٣٣ .

(١) مختصر الإباضية ٢٧ وانظر : عوض محمد خليفات : النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية ص ١٩ ، ٢٠ .

على أفراد جماعتهم من الانحلال والذوبان فى المجتمعات الأخرى^(١) ، كما توجد
تجمعات الإباضية فى جبل نفوسة بليبيا وجزيرة جربة فى تونس وقد امتد نفوذ الإباضية
إلى الأندلس لاسيما فى جزيرتى «ميورقة» و«مينورقة»^(٢) .

هذا عن النشاط الاجتماعى والسياسى للإباضية أما النشاط العلمى فقد حمل
الدعوة بعد ابن إياض أبو الأشعث جابر بن زيد ثم خلفه أبو عبيدة مسلم ابن أبى كريمة
التميمى الذى أنشأ ما يمكن أن نسميه مركزا لدراسة المذهب الإباضى بالبصرة ينتشر
خريجوه الذين كان يطلق عليهم حملة العلم - إلى مختلف البلدان فى محاولة لجمع
أنصار المذهب سرا حتى تسنح فرصة الظهور عندما يأنسون من أنفسهم قوة . وتوجهت
هذه البعثات إلى اليمن وحضرموت وعمان وخراسان كما توجهت أيضا إلى المغرب
العربى . وفى الوقت الذى حققت فيه هذه البعثات العلمية نجاحا ملحوظا كانت الدولة
الأموية تلفظ أنفاسها وتتهار سلطتها فى كثير من المناطق .

وواصل الربيع بن حبيب البصرى إرسال البعثات العلمية إلى الأقطار المختلفة
وتحول فى عصره مركز الثقل الإباضى إلى عمان ومنها انتقل المذهب فى اتجاه الهند
والصين كما أصبحت مصر أيضا مركزا للدراسات الإباضية لا يقل عن أهمية البصرة
سابقا^(٣) .

ثم انتقلت الدعوة إلى المغرب وانتشرت سريعا بفضل مجموعة نشطة بذلت كل

(١) انظر تفاصيل أسس هذا النظام الاجتماعى التربوى عند الإباضية فى كتاب «النظم
الاجتماعية والتربوية عند الإباضية فى شمال أفريقيا فى مرحلة الكتمان» لمؤلفه عوض
محمد خليفات وكتاب نظام الغرابة عند الإباضية فى جربة لمؤلفه فرحات الجعيرى .

(٢) الإباضية بين الفرق الإسلامية ٧٩ ، ٨٠ ، العقود الفضية ٢٣٧ .

(٣) أبو زكريا يحيى أبو بكر : سير الأئمة وأخبارهم ص ٦ تحقيق إسماعيل العربى - المكتبة
الوطنية الجزائرية ١٩٧٩ .

خبيص وغال وكان أفرادها قسوة حسنة في المجتمع الذي عاشوا فيه (١). ولا الرجال
 بطانين - ١٨٠٠ بين حملة السلم الممثلة في أن الكتاب في الأملين في
 المعافى ، وعبد الرحمن بن رستم الفارسي ، وعاصم السدراتي ، وأبو داود النفراوى
 وإسماعيل بن درار الغدامس (٢) .

فرق الإباضية :

يضم المذهب الإباضى عدة فرق شأنه في ذلك شأن بقية المذاهب الأخرى يقول
 أحد الباحثين : « والمذهب الإباضى ليس بدعا من المذاهب الإسلامية فقد كان
 الخلاف يقع من العلماء فيناقشون فيه » (٣) ويرى أنه من العسير أن يحدد الباحث
 الخلاف أو المسألة الأولى التي اختلفوا فيها ولكنه يستطيع أن يجزم أن الخلاف داخل
 المذهب وقع منذ تكوينه .

وقد أحصى كتاب الإباضية أهم الفرق التي تنضوى تحت المذهب الإباضى أو التي
 انشقت عن الإباضية فوجدوها ست فرق : النكارية والتفائية والخلفية والحسينية
 والسكاكية والفرثية - وهى فرق تمثل فى المذهب الإباضى مراحل تاريخية وعقدية
 ينطوى عليها المذهب أو تشكل تجربته التاريخية :

النكارية : ظهرت فى بلاد المغرب العربى ١٧١ هـ وسميت بالنكارية لإنكارها إمامة
 عبد الوهاب بن رستم وكان من أهم مبادئها أنه لا تجوز إمامة المفضل مع وجود
 الأفضل وأن الإمامة تصح بشروط إذا شرطها الناس عند البيعة وتسقط لمخالفة تلك

(١) وليس كما يذهب البعض من أن قبول البربر للمذهب الإباضى كان رد فعل من البربر
 ضد العرب الفاتحين الذين كانوا يعتبرونهم دخلاء على البلاد .

(٢) انظر ترجمة هؤلاء فى : سير الأئمة أبى زكرياء ٢٥ وما بعدها وطبقات الدرجينى ١٢
 ٢٢ وما بعدها ، وابن الأثير : الكامل ٣ / ٥٠ ، ١٥ / ٣١٦ .

(٣) أبو العباس أحمد بن سعيد الدحني : طبقات المشايخ بالمغرب ١ / ٤١ تحقيق إبراهيم
 طلاى مطبعة البعث قسنطينة الجزائر ١٩٧٤ .

الشروط^(١) .

النفثائية : تنتسب إلى فرج نصر النفوسى المعروف بالنفثا وهو من إحدى القرى القريبة من جبل نفوسة بليبيا^(٢) . وقد أغفل كتاب المقالات الحديث عن هذه الفرقة بينما تمتلئ بذكرها والحديث عنها مصادر التاريخ السياسى للمغرب الإسلامى فضلا عن كتب الإباضية المطبوع منها والمخطوط ، ومعظم هذه الكتب تتحدث عنها على أنها فرقة مارقة وخارجة عن المذهب الإباضى ولكنها محسوبة على المذهب بوجه عام^(٣) . ومن أهم عقائد هذه الفرق اعتقادها أن الله هو الدهر وإنكارهم خطبة الجمعة والقول بأنها بدعة^(٤) .

الخلفية : واحدة من الإفرازات السياسية التى كونت أفكارا ومعتقدات تختلف مع المذهب الإباضى . وتنسب إلى « خلف بن السمح بن أبى الخطاب عبد الأعلى ابن السمح المعافر » ويبدو أن الحروب والمنازعات التى وقعت بين هذه الفرقة والدولة الرسمية شغلتها أن تدلى بدلوها فى مجال العقيدة حتى إن المؤرخ الإباضى « على يحيى معمر » يعجب من عدها فرقة من فرق الإباضية^(٥) .

الحسينية : وتتميز عن الفرق السابقة بأنها لم تدخل فى معارك سياسية ولا صراعات حربية وقد عاشت فى طرابلس فى القرن الثالث الهجرى ومؤسسها هو أبو زياد أحمد بن الحسين الطرابلسى الذى تنسب له كتب كثيرة لكن لا يوجد منها شىء مطبوع أو متداول - فيما نعرف - ومن أهم عقائد هذه الفرقة حكمها بشرك المتأولين المخطئين من

(١) أبو الربيع سليمان البارونى : مختصر تاريخ الإباضية ٣٤ . الطبعة الثانية . مكتبة الاستقامة .

(٢) السابق ٣٧ .

تونس .

(٣) دكتور محمود إسماعيل عبد الرازق : الإباضية فى بلاد المغرب ١٦٧ مطبعة النجاح

الجديدة . الدار البيضاء . الطبعة الأولى .

(٥) السابق ٢٥٨ ، ٢٧٢ .

(٤) الإباضية بين الفرق الإسلامية ٢٦٧ .

فرق الأمة وأن الحب والرضا والولاية والعداوة والسخط أفعال لله وليست بصفات الله^(١). ويقول عنها المؤرخ الإباضى يحيى ابن معمر إن فى عقائدها ما يخرجها عن الإسلام^(٢).

السكاكية : تنسب إلى عبد الله السكاك اللواتى من شمال أفريقيا . اعتنق جملة من المقالات ودعا إليها وهى على الجملة لا تخرجه من الإباضية وإن كان بعض كتابها يخرجونه منها بل يخرجونه من الإسلام جملة . يقول الدرجينى فى طبقاته : وكان مشايخ السلف - سلف الإباضية - تتضارب أقوالهم فى السكاك وأصحابه وتتفاوت فقائل يشركهم وقائل بنفاقهم^(٣) . ومن أهم عقائدها إنكارها للسنة النبوية والإجماع والقياس لأن الدين كله مستخرج من القرآن وصلاة الجماعة بدعة والأذان بدعة وكانوا إذا سمعوا المؤذن قالوا نهق الحمار . ولا تجوز الصلاة عندهم إلا بما عرف تفسيره من القرآن . ويذكر على يحيى معمر أن الإباضية كانت تكفرهم ولا تصلى على من مات منهم بل تجعل فى رجله مرابط يجز منها إلى موضع يوارى فيه^(٤) .

الفرثية : ويرى بعضهم أن عدها فرقة من قبيل التجوز لأن مقولات مؤسسها أبى سلمان بن يعقوب بن أفلح لا ترقى إلى أن تكون أساسا لفرقة وكانت الإباضية تعتبر مقولاته نفاقا أو شركا^(٥) .

هذه أهم الفرق التى خرجت عن الإباضية وهى لا تعدو أن تكون إفرازات فكرية وسياسية وشخصية اغتنم أصحابها ومؤسوها جملة من عوامل مرت بالتاريخ الإسلامى

(١) المارغنى : فرق الإباضية الست وما زاغت به عن الحق ص ٦ وما بعدها .

(٢) الإباضية بين الفرق الإسلامية ٢٧٤ .

(٣) طبقات المشايخ بالمغرب ١٨ / ١ .

(٤) الإباضية بين الفرق الإسلامية ٢٧٥ . وهذا تطرف فإن لم يكرم لأنه إباضى أو مسلم فليكرم لأنه إنسان والحق يقول : « ولقد كرمتنا بنى آدم » هكذا عامة .

(٥) طبقات المشايخ بالمغرب ١٠٦ / ١ .

فى المغرب حيث أقيمت الدولة الإباضية الرسمية التى يعتقد أن معظم حكامها اتسموا بالعدل والتواضع والتزام روح الإسلام .

(ب) مذهب الإباضية :

رغم تأكيد الإباضية وسعيهم إلى اعتبارهم مذهباً من المذاهب الإسلامية لا صلة به بجماعة الخوارج ورغم أن كثيراً من كتاب الفرق قداماء ومحدثين أقروا بأن الإباضية أكثر الفرق الخارجية اعتدالاً وأقربها تفكيراً ورأياً وسلوكاً إلى أهل السنة ، بالرغم من هذا فقد نسبت إلى الإباضية بعض الآراء التى يبدو فيها التطرف ويحتمل ظاهرها الخروج ، ويذهب الإباضية المعاصرون إلى رد بعض هذه الآراء وتبرئة الإباضية منها أو إلى تفسيرها يتأى بها عن التطرف والخروج .

ومن أهم ما نسب إليهم من ذلك :

كفر مخالفينهم إذ يرون أن مخالفينهم من المسلمين ليسوا مشركين ولا مؤمنين . بل سموهم كفاراً وقد اعترض الإباضية المعاصرون على نسبة القول بذلك إلى الإباضية وأكدوا أن الإباضية تستخدم كلمة كفر بمعنى كفر النعمة وهو بهذا فى معنى المعصية أو الفسوق ، وأن كلمة كفر بهذا المعنى لا تطلقها الإباضية على من خالفها فحسب بل هو مصطلح يستخدم حتى بالنسبة للعصاة منهم ، فهم إذن لا يفرقون بين مخالفينهم وجماعتهم بل يعتبرون العصاة من الفريقين كفاراً أو عصاة أو فسقة لتقصيرهم فى جنب الله^(١) .

ولنعرض هنا أهم أقوالهم فى مسائل العقيدة :

(١) الإباضية بين الفرق الإسلامية ٨٩ ، الإباضية فى موكب التاريخ ١ / ٨٩ وانظر الجامع

الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب ٣ / ٥ .

قضية التوحيد عند الإباضية هي قضية التوحيد عند غيرهم ويسمونها (جملة التوحيد) وفي الواقع وللإنصاف فإن عقيدة الإباضية فيها لم تتأثر بمؤثرات غير إسلامية كما هو الشأن عن فرق كثيرة تنتسب إلى الإسلام^(١) ، فعندهم أن من أقر بالشهادتين واعتقد أن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحكام والشرائع هو الحق فقد أصبح من الموحدين ، ومن ثم تنفى عنه أحكام المشركين ويحرم سفك دمه وغنيمة أمواله وسبى ذريته^(٢) .

ويقرر باحثهم محمد بن يوسف أطفيش : أن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله واعتقد أن ما جاء به محمد من عند ربه هو الحق والإيمان بجملة الملائكة والرسل وجملة الكتب التي أنزلها الله على رسله والإيمان بأن الموت حق ، وأن النار حق ، والإيمان بالقضاء والقدر . من أقر بأن هذه الأمور التي كان يدعو إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي عقيدته فقد تم إيمانه فيما بينه وبين الله وفيما بينه وبين الناس^(٣) .

ويشرح بعض أئمتهم سر تسميتهم التوحيد بمصطلح (جملة التوحيد) فيقول : « ... وإنما عبر الإباضية عن هذه الأمور والتي هي صرح الإيمان بجملة التوحيد نظرا عن تعبيرها عن كليات الإيمان التي تندرج تحتها مدلولات جزئياته فإن كل اعتقاد

(١) ناصر بن سالم الرواحي : نثار الجوهر في علم الشرع الأزهر ١ / ٢٢ مسقط سلطنة عمان ١٤٠٠ هـ .

(٢) أبو الحسن علي بن محمد البسياني : مختصر البسيوي ص ٩ وزارة التراث القومي سلطنة عمان ١١٩٧ .

(٣) محمد بن يوسف أطفيش : الذهب الخالص المنوه بالعلم الخاص ١١ ، ١٢ ، المطبعة العالمية سلطنة عمان .

صحيح عن الله وصفاته وأفعاله دنيا وأخرى تفسير لها ، كما أن كل ما تسلزمه عقيدة التوحيد من الأعمال الصالحة وفاء بحقها^(١) .

هذا ويؤكد الإباضية على أن معرفة التوحيد من الأمور التي لا يجوز أن يجهلها الإنسان متى بلغ مرحلة التكليف . وفي هذا يقول أحد علمائهم عند تقسيمه العلوم إلى ثلاثة أقسام هي : علم ما لا يسع الناس جهله طرفة عين ، وعلم ما يسع جهله إلى الورد وقيام الحجة ، وعلم ما يسع جهله أبداً . فأما علم ما لا يسع جهله طرفة عين فهو معرفة التوحيد والشرك لا يسع جهله لأن من جهل الشرك لم يعلم التوحيد فوجب معرفة الشرك والتوحيد من أول البلوغ^(٢) .

وليس بين الإباضية خلاف حول وجوب معرفة جملة التوحيد بالشرع لا بالعقل ، لأن العقل عندهم ليس كافياً أن تقام به الحجة بين الناس ومعرفة الله تقوم وتثبت بإرسال الرسل . يقول صاحب الموجز : « إن الناس لم ينالوا شيئاً من معرفة الله في الدلالة على توحيده ولا من معرفة شيء من دينه إلا بتوفيق من الله لهم على السنة رسله وتبيينه منه على أيديهم »^(٣) ويقول السالمى : « ذهب الجمهور منا إلى أن العقل لا حكم له في شيء من الوجوب الشرعى ، والمراد من الوجوب الشرعى عندنا هو ما يترتب عليه الثواب والعقاب . فلا وجوب عندنا قبل الشرع في شيء من الأصوليات والفرعيات . لا فرق في ذلك بين التوحيد وغيره . فإن العقل وإن أدرك بالضرورة أن له صانعاً لا يوجب عليه لذلك الصانع شيئاً من العبادات فلا وجوب قبل الشرع لقوله تعالى :

(١) تعليق الشيخ أحمد الخليلي على كتاب مشارق أنوار العقول ص ١٣٠ مسقط سلطنة عمان . طبعة ثانية ١٩٧٨ .

(٢) أبو زكرياء يحيى الجنائني : كتاب الوضع ص ٣٠ مطبعة الاستقامة سلطنة عمان طبعة ثانية .

(٣) أبو عمار الكافي الإباضى : الموجز في تحصيل السؤال وتلخيص المثال في الرد على أهل الخلاف ٢ / ١٣١ . تحقيق د/ عمار الطالبي الشركة الوطنية الجزائرية ١٣٩٨ هـ .

﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾^(١) ولقوله تعالى : ﴿أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى﴾^(٢) فإنه سبحانه لم يقل أو لم نركب فيهم عقولا .

وهم فى هذا يتفقون مع جمهور أهل السنة فى قولهم بوجوب معرفة الاعتقاد بالشرع قبل العقل مخالفين معا مناهج المعتزلة والشيعة وغيرهما ممن يرى إثبات وجوب المعرفة الاعتقادية بالعقل قبل الشرع^(٣) .

الأسماء والصفات :

ينحو الإباضية منحى المعتزلة أو قريبا منه فى مسألة الصفات فيذهبون فيها إلى قولين لا يرون بينهما تعارضا فكلاهما جائز عندهم .

القول الأول : يرون فيه أن صفات الله الذاتية هى أمور اعتبارية لا يراد بها إلا نفى أضدادها من النقائص فوصفه تعالى عندهم بالعلم والسمع والبصر والكلام ليس إلا تنزيها عن الأوصاف الناقصة كالجهل والصم والعمى والخرس .

والقول الثانى : يرون فيه أن صفات الله تعالى أمور اعتبارية بحسب تجليات أعيان الوجود وتأثرها وانتقالها للذات العلية ، وهى الفاعلة بذاتها والمنكشفة لها الحقائق ومن ثم فليس هناك صفة زائدة عليها ، فإذا ما وصفت الذات بالعلم فإن ذاته تعالى كافية فى انكشاف حقائق الأشياء لها انكشافا تاما فهى أى الذات حقيقة وصفه بالعلم ، وعلى هذا القول ينون عقيدتهم فى كل الصفات .

والإباضية وخاصة إباضية المشرق يقسمون الصفات إلى قسمين : صفات ذاتية وهى كل صفة لا تجامع ضدها فى الوجود ولو اختلف المحل كالعلم والقدرة والإرادة .

(١) سورة طه ١٣٨ .

(٢) سورة طه ١٣٣ .

(٣) تاج الدين عبد الوهاب السبكي : حاشية البناني على متن جمع الجوامع ١ / ٦٣ عيسى البابى الحلبي . القاهرة .

وصفات فعلية وهى كل صفة جاز أن تجامع ضدها فى الوجود عند اختلاف المحل كان يوسع فى رزق زيد ويضيق فى رزق عمرو . وهذا النوع من الصفات - صفات الفعل - لا يجوز عندهم أن يتصف بها البارئ تعالى فى الأزل وإنما يتصف بها فيما لا يزال^(١) . غير أن إباضية المغرب يرون أن صفات الله كلها قديمة أزلية بمعنى أنه لم يزل الله متصفاً بها فى الأزل والحال . وهذا أهم خلاف بين الإباضية فى مسألة الصفات يراها أباضية المغرب قديمة كلها ويرى المشاركة منهم أن صفات الفعل حادثة وهو خلاف ليس بالأمر اليسير كما يرى الجيظالى^(٢) .

وتتضح - فى مسألة الصفات - علاقة خاصة بين إباضية المشرق والمعتزلة عندما تقرر إباضية المشرق تجريد الذات الإلهية من الصفات التى وصف الله بها نفسه وتعتبر أن الصفات عين الذات غير مغايرة لها . وليست هذه الصفات عندهم حقائق مستقلة وإنما هى اعتبارات ذهنية ليس لها وجود فى الخارج . فالله تعالى عليم بذاته لا يعلم هو غيره ، سميع بذاته لا يسمع هو غيره . وهذا عين مذهب المعتزلة . كما أن الدافع له عند الإباضية هو نفس الدافع الذى حدا بالمعتزلة إلى القول به وهو الرد على فكرة الأتانيم عند النصارى وعدم ماثلة الخالق للمخلوق^(٣) . فمقصودهم من أن صفات الله هى عين ذاته أن الصفة لو كانت زائدة على الذات قائمة بها كما يتصور النصارى لتعددت الصفات الأزلية ومن ثم تعددت الإلهية .

وفى تأكيد معتقد أن صفات الله عين ذاته عند الإباضية يقول الرواحى - أحد علمائهم - « ... فهو سبحانه وتعالى مثلاً عالم لا يعلم يعلم به وقادر لا بقدرة يقدر بها وهكذا فى سائر صفاته ، لأنه لو كان يعلم يعلم ويقدر بقدرة .. لاقتضى أن يكون ذلك العلم هو الإله وأن الإله هو العلم وهذا باطل ، وإلا لجاز أن يكون العلم ربا لعلوم والقدرة

(١) مشارق أنوار العقول : ٧١٣ .

(٢) قناطر الخيرات ١ / ٣٠١ .

(٣) نثار الجوهر ١ / ٣٥ .

إلها لغيرهم والإرادة معبودة لآخرين وهكذا فى بقية الصفات ، وهذا باطل لا يدعيه أحد لأنه شرك ظاهر^(١) .

وتنتج عن تجريد الإباضية الذات الإلهية عن الصفات أن نفوا عنه الصفات الخيرية أيضا . فنفوا عنه تعالى الوجه والعين واليد واليمين والدنو والتجلى والنزول والاستواء متأولين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تثبت لله تعالى الوجه واليد والعين واليمين والدنو والتجلى والاستواء معتقدين أن ما ورد من صفات خيرية فى القرآن والسنة لا يقصد منه ظاهر اللفظ لأنه فيما زعموا لو قصد اللفظ لأوهم التشبيه والتجسيم وذلك من خواص المخلوقات .

وقد توسع صاحب (منهج الطالبين وبلاغ الراهبين)^(٢) فى شرح هذه الصفات الخيرية مبتدئا بالنفس والوجه والعين وغيرها من الصفات مستعينا باستعمالات اللغة العربية للمفردة الواحدة فى دلالات مختلفة . حتى إنه عندما كان يجد أمامه بعض القضايا المستعصية على منهجه والتى لا يجدى فيها استعمال دلالات اللغة على وجوها فإنه كان يؤول بغير قرينة ويذهب بغير دليل مثلما فعل مع الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه : إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء^(٣) . فإنه صرف قوله صلى الله عليه وسلم « بين أصبعين » إلى نعمتين أحدهما فيما ذهب إليه : سوق الخير فى التماس الرزق والثانية صرف الشرور عنه^(٤) .

(١) السابق ٢٣ / ١ .

(٢) خميس بن سعيد بن على الرستافى : منهج الطالبين ١ / ٣٩٨ مطبعة عيسى البابى

الحلبى بمصر .

(٣) صحيح مسلم كتاب القدر باب تصريف القلوب ٨ / ٥١ .

(٤) منهج الطالبين ١ / ٤٠٤ .

الاستواء والعلو :

خالف الإباضية أساسهم الذى وضعوه فى معرفة العقائد وهو تقديم الشرع على العقل والذى سبق أن التزموا به فيما أسموه جملة التوحيد خالفوا ذلك فى معرفة ما فهموه ومن ثم ما اعتقدوه مما فى كتاب الله وسنة نبيه حول موضوع الاستواء والعلو إذ ينحون فى ذلك منحى عقليا لا يعتمد النهج النقلى الذى جعلوه منطلقهم فى وجوب معرفة التوحيد وكان يجب أن ينعكس هذا المعتقد على كل بحوثهم لقضايا العقيدة .

قالوا فى الاستواء إن الله منزّه عن الاختصاص فى الأمكنة والجهات فإن الجهات إما فوق أو أسفل وإما يمين أو شمال أو قدام أو خلف . وعندهم أن الله الذى خلق هذه الجهات لو اختص بجهة ما لكان متميزاً كاختصاص الجواهر والأجسام وتمييزها بالأمكنة والجهات . ويقول صاحب قناطر الخيرات : « وقد ثبت استحالة كونه جوهراً أو جسماً فاستحال كونه مختصاً بجهة وثبت أنه تعالى فى كل مكان »^(١) وينسب الإمام الربيع بن حبيب إلى الحسن قوله فى تفسير قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان »^(٢) أى استوى أمره وقدره إلى السماء ، وقوله : « ثم استوى على العرش »^(٣) يعنى استوى أمره وقدرته ولطفه فوق خلقه ولا يوصف الله بصفات الخلق ولا يقع عليه الوصف كما يقع على الخلق »^(٤) ، كما يذكر الربيع أن عبد الله بن مسعود وعائشة وابن عمر وابن الخنفية وعروة بن الزبير كلهم كانوا ينكرون ما يقول أهل الشام فى الصخرة من أن الله تعالى وضع قدمه على صخرة بيت المقدس^(٥) .

ويمعن صاحب منهج الطالبين^(٦) فى تأكيد منهج النفى أعنى اعتقاد عدم

(١) ٢٩٤ / ١ . (٢) سورة فصلت ١١ . (٣) سورة الأعراف ٥٤ .

(٤) الجامع الصحيح - مسند الربيع باب قوله تعالى : الرحمن على العرش استوى ٣ / ٣٥ . مكتبة الثقافة العربية بالقاهرة .

(٥) السابق ٣٥ . (٦) ١٠٩ / ١ .

الاستواء وتأويله إلى معنى يليق بذاته تعالى فيقول على ضوء ما يشاهده في مادة الخلق ليقبس به أمر الخالق سبحانه : الاستواء في لغة العرب على معنيين : أحدهما الجلوس على الشيء والمماس له كما يستوى الفارس على فرسه والملك على سريره وهذه صفة من يستوى بعد أن كان مائلا ويعتدل بعد أن كان أعوج ، والله سبحانه منزّه عن هذه الصفة . والوجه الثاني عنده هو استواء الملك والقدرة والتدبير وهو معروف عند العرب ، وأمام صريح قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ إِنْ رِئُوسُ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِمْ الْأَعْوَجَ ﴾ (١) يجيء قطب الأئمة الإباضية الإمام محمد بن يوسف اطفيش ويفسر استوى على العرش بمعنى استولى بالملك والغلبة والقوة والتصرف كيف يشاء . وخص العرش بالاستيلاء لعظمته (٢) .

هذا ويصرح الإباضية بأنه لا ضير عليهم في أن يكون مذهبهم في العلو والاستواء على العرش على غرار مذهب المعتزلة والمتكلمين في نفى الاستواء معتقدين أن الاستواء لا يكون إلا لجسم ولما له حيز وجوهر ولأن كل متمكن على جسم لا محالة مقدر . فإما أن يكون أكبر منه أو أصغر منه أو مساوياً له وهذه الأمور يقولون بجواب نفيها عن الله تعالى .

كلام الله تعالى :

اختلفت الإباضية في هذه المسألة فذهب إباضية المشرق إلى القول بأن القرآن غير مخلوق . يقول الشيخ الرستافى وهو مؤرخ إباضى من المشاركة « إن القرآن كلام الله ... والله تعالى لم يزل متكلماً » (٣) وفي هذه المسألة يبرز الجانب الاجتهادى عند الإباضية

(١) سورة يونس ٣ .

(٢) محمد بن يوسف الوهبي : تفسير هيمان الذات إلى دار المعاد ص ١١٦ المطبعة السلطانية زنجبار ١٣٠٦ هـ .

(٣) منهج الطالبين ١/ ٢٠٤ وانظر القلھانی : الكشف والبيان ١/ ٨٩ .

فهم بالرغم من تأثيرهم بالمنهج العقلى فى تأويل وفهم بعض النصوص الشرعية - المنهج الذى يجعلهم يقتربون أحيانا من المعتزلة - لكنهم هنا وفى مسألة خلق القرآن نراهم يخالفون المعتزلة والقدرية ومن يقول بخلق القرآن .

ويوردون فى ذلك عدة أدلة يعززونها بآيات من القرآن الكريم يستدلون بها على صحة ما ذهبوا إليه من أن القرآن غير مخلوق . من ذلك قوله تعالى : ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾ (١) فإن تعبير القرآن جاء يخبر عن خلق الإنسان وعن تعلمه البيان فلو كان القرآن مخلوقا لكان السياق خلق القرآن والإنسان وكذلك قوله تعالى : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ (٢) فقبل وبعد عندهم إذا لم يقيدا بشيء يقتضيان الأزل وإذا قيدا بشيء فقبل كذا وبعد كذا كان ذلك لما قيد به ، فإن قيل : قبل مطلقاً وبعد مطلقاً كان المراد به الأزل والأبد . والله سبحانه أطلق القول فيه فقال لله الأمر من قبل ومن بعد وهذا يقتضى أن يكون الأمر له أزلا ولا يزال . وما يوجد أزلا ولا يزال فهو قديم وأنه قبل الأشياء كلها وبعد الأشياء كلها كما قال سبحانه وتعالى ، وما كان قبل الأشياء كلها وبعدها كلها فلا يكون محدثا لأن المحدث ما كان له أول فى الابتداء وآخر فى الانتهاء (٣) .

ومما يلفت الانتباه فى هذه المسألة أن ترى الإباضية يستشهدون على أن القرآن غير مخلوق بكلام على بن أبى طالب رضى الله عنه عندما اعترض عليه الخوارج فقال أنا ما حكمت مخلوقا وإنما حكمت القرآن ، ويرون أن هذا الأثر جرى بمشهد من الفريقين جميعا فلم ينكر عليه أحد فصح أنه ما حكم مخلوقا وإنما حكم القرآن . يستشهدون بكلام على رضى الله عنه ويرون أن كلام الرجل غير مرفوض بل حجة فى إقامة بعض الأحكام التى تشكل جزءا من معتقدهم .

(١) سورة الرحمن ١ - ٤ .

(٢) سورة سورة الروم ٤ .

(٣) الكشف والبيان ١ / ٢٩٠ .

وإذا كان هذا مذهب إباضية المشرق فإن إباضية المغرب يذهبون إلى غيره فيعتقدون أن القرآن مخلوق . يقول الشيخ عامر الشماخي الإباضى ندين بأن الله خالق كلامه ووحيه ومحدثه وجاعله ومنزله^(١) . بل إنهم ليتشددون ويقولون ليس منا من قال إن القرآن غير مخلوق^(٢) .

ولكن هذا الاختلاف بين جناحي الإباضية فى المشرق والمغرب لا يوجب فى نظر الفريقين البراءة من فريق أمام فريق لأنه ليس جوهرها عند التحقيق والجميع إباضية صحيحة عقيدتهم^(٣) .

رؤية الله :

منطقى وقد بنى الإباضية مذهب المعتزلة فى الصفات وساروا فى طريق النفى أو مناهته أن ينتهوا فى عقيدة الرؤية بالنفى أيضا وأوردوا بين يدى نفهم لها جملة ما أورده المعتزلة من حجج فقالوا إن رؤية البارى من الأشياء التى لا يتصور العقل صحة وجودها لأن العقل يحيل . ذلك إذ أن الرؤية تقتضى التحيز والجهة وما إلى ذلك أمن المقولات التى ذهب إليها من أعمل العقل وأهمل الشرع^(٤) .

واستدلوا بالآية التى استدل بها المعتزلة - آية الأنعام - لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير^(٥) وأهملوا أو تأولوا ما عداها من الآيات التى تثبت الرؤية أو التى تشرح آية الأنعام وتفسرها وتبين مرادها كما جمعوا من الآثار النبوية وأقوال الصحابة ما يروونه يخدم معتقدهم فى نفى الرؤية فحديث مسلم فى صحيحه الذى روى عن أبى ذر رضى الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأى ربك؟ قال : نور أنى أراه^(٦) . يرويه الربيع بن حبيب هكذا : روى محمد الشيبانى أن

(١) سعيد التعاريف : المسك المحمود ١٥٣ الجزائر ١٣٢١ هـ .

(٢) الشيخ عامر الشماخي : الديانات ص ٤ . (٣) السالمى : بهجة أنوار العقول ١ / ٩١ .

(٤) السابق ١ / ٦١ . (٥) سورة الأنعام ١٠٣ .

(٦) صحيح مسلم : كتاب الإيمان : باب قوله صلى الله عليه وسلم نور أنى أراه .

النبي صلى الله عليه وسلم سئل هل ترى ربك قال سبحانه الله وأنى أراه^(١) .

ومن تلك الأحاديث التي يعتمدون عليها فى نفى الرؤية ما روى عن عائشة: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية^(٢) .

وأما قوله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة^(٣) فإن الإمام الربيع بن حبيب يروى أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس فيها فقال ابن عباس هو الذى لا كفؤ له أى لا ينظر إلى النار برحمته وأهل الجنة ينظرون إليه فى ثوابه وكرامته ورحمته ولا يروونه بأبصارهم^(٤) .

هذا وينسب الإمام الربيع فى مسنده إلى على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعائشة أم المؤمنين ومجاهد وإبراهيم النخعى ومكحول الدمشقى وعطاء بن يسار وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم وأبو صالح صاحب التفسير وعكرمة ومحمد بن كعب وابن شهاب الزهري أنهم قالوا جميعا إن الله لا يراه أحد من خلقه^(٥) .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن علماء الإباضية القدامى والمحدثين يعتمدون فى هذه القصة على مسند الإمام الربيع بن حبيب ومسند الرجل ليس بالمسند الذى اعتمده أهل الحديث من علماء السنة والجماعة وليس كما يزعمون أنه أصبح كتب الحديث رواية وأعلها سندا .

والخلاصة أن الإباضية جميعا يقولون بنفى الرؤية ويتشددون فى الحكم على من

(١) مسند الإمام الربيع ٢٧ / ٣ باب ما جاء عن ابن عباس فى النظر رقم ٨٥٦ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب قوله عليه السلام نور أنى أراه ١ / ١١١ .

(٣) سورة القيامة ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) مسند الإمام الربيع باب النظر إلى الله ما جاء عن ابن عباس ٢٧ / ٣ رقم ٨٥٥ .

(٥) السابق ٢ / ٣ .

يثبتها تشددا يصل إلى درجة الغلو أحيانا .

مرتكب الكبيرة :

قضية (الكبائر) وحكم مرتكبها والتشدد فيها لازمت الخوارج بشكل أصلى وانتقلت إلى الإباضية تاريخيا بحكم علاقة النشأة الأولى والتي انقطعت بين الإباضية والخوارج وإن كان كثير من المؤرخين لم يسلم بعد بعملية استقلال المذهب الإباضى فى تصحيحاته واجتهادات ائمه عن جملة معتقدات الخوارج :

وبادئ ذى بدء نجد الإباضية يقسمون الكفر إلى قسمين : كفر الشرك وكفر النعمة ، وكفر الشرك ينقسم إلى قسمين : كفر المساواة وهو أن يسوى العبد بين الخالق والمخلوق فى الذات والصفات وكفر الجحود والإنكار وهو إنكار وجود الله والملائكة والأنبياء وصاحب هذا الكفر بقسميه مغل في النار .

أما كفر النعمة فيتمثل عندهم فى اقرار كبائر الذنوب والمعاصى وقد قسموه أيضاً إلى قسمين : صفائر وكبائر ، والصفائر هى التى لم يثبت علي فاعلها حد ، أو هى تلك الذنوب التى قل فيها الإثم وبعضهم يصفها بأنه كل ذنب لم يأت فيه وعيد ولم يعينه نص (١) .

أما الكبائر فيتوسع الإباضية فى موضوعها وتدفعهم روح التشدد فى تشكيل معالمها .

وحكم الصفائر مرتبط بالكبائر بمعنى غفران الصفائر عند اجتناب الكبائر لقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ (٢) أما إذا أصر العبد على الصفائر فهو عند الإباضية هالك (٣) .

(١) السالى : بجهة أنوار العقول ١ / ١٧٥ ، مشارق العقول له أيضا ص ٣٧٦ .

(٢) سورة النساء : ٣١ .

(٣) مشارق أنوار العقول ٣٧٨ .

وحكم مرتكب الصغيرة فى الدنيا عند الإباضية أنه موحد لا يوصف بالفسق ولا بالضلال ولا بالكفر حتى يعلم منه الإصرار عليها والعزم على عدم التوبة^(١).

أما مرتكب الكبيرة فيعامل بأحكام المؤمنين إذا لم يقترب باستحلال الكبيرة يعنى لا يمكن رده أما فى هذه الحالة الأخيرة فتترك ولايته عندهم ولا تقبل شهادته وتجب البراءة منه ويحل قتله بل وإضاعة ماله .

ومجرد فعل الكبيرة يغير استحلال يوجب الحد ، وإن كان عن استحلال فإن مرتكبيها يدعون إلى الحق فإن استجابوا وإلا حوربوا ولا يحل منهم غير دمائهم فلا تغنم أموالهم ولا يجهز على جريحهم طالما لم يصلوا إلى مأوى وقفة .

هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فإن خرج غير مقلع عنها فهو كافر مخلد فى النار لأن الكبيرة التى اقترفها ولم يتب منها أحبطت أعماله التى قام بها^(٢) .

وقد استدل الإباضية فى هذا الصدد ومعهم المعتزلة والخوارج بتخليد مرتكب الكبيرة فى النار بأدلة من القرآن وأخرى من السنة تأولوها بما يحقق معتقدهم من مثل قوله تعالى : ﴿ ومن يعصى الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ﴾^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾^(٤) وهى وغيرها آيات لها مخارج كثيرة ذكرها العلماء .

أما الأحاديث فقد ارتكزوا فيها على ما جاء فى مسند الربيع بن حبيب وقد جاءت فى معظمها بغير سند ولا راو ومتنها مخالف فى روايته لما فى كتب الصحاح^(٥) .

(١) السابق والصفحة .

(٢) جميل بن خميس السعدى : قاموس الشريعة ٦ / ٣ . مطبعة السلطانية . زنجبار ١٢٩٩ هـ .

(٣) سورة الجن : ٢٣ . (٤) سورة البقرة : ٨١ .

(٥) انظر : الجامع الصحيح : مسند الإمام الربيع ٣ / ٤ ، ٥ .

ويعلل بعض علمائهم سر تشددهم في هذا الحكم فيقول : والحكمة في خلود أهل الكبائر في النار أن العاصي إذا عصى فقد عصى ربا عظيماً لا نهاية لعظمته فكذلك يكون عذابه بخلود لا نهاية له^(١) .

يذهبون إلى ذلك بينما يذهب بعض الصوفية إلى غيره تماماً عندما يرون أنه لا خلود في النار حتى الكفار يخرجون منها أو يستعذبون عذابها بعد فترة لأن الله أرحم أن يعذب على كفر اقترف في دنيا قصيرة بخلود في النار لانهاية له . فرحمة الله أكبر وأوسع .

الإباضية والمعتزلة :

باستثناء المنزلة بين المنزلتين فإن الإباضية تقول بمبادئ المعتزلة ، في جملتها من العدل والتوحيد والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ففي مبدأ التوحيد نجد الإباضية تذهب في فهم الصفات مذهب المعتزلة من أن صفاته تعالى هي ذاته ولا تدل على معان زائدة ، وغالوا في نفى التشبيه غلو المعتزلة ، وأنكروا تبعاً لذلك الاستواء على العرش وصرفوا ما ورد فيه من آيات بل وكل الآيات التي يوهم ظاهرها التشبيه عن مدلولاتها الظاهرة وأنكروا رؤية الله تعالى في الآخرة وقالوا بخلق القرآن^(٢) .

وفي مبدأ الوعد والوعيد نجدهم يعتقدون مثل المعتزلة أن الله لا يغفر الكبائر لارتكبيها إلا إذا تابوا قبل الموت ، وأن عذاب النار أبدى لمرتكب الكبيرة من المسلمين ، وإذا مات دون أن يتوب لا تنفعه شفاعة الملائكة أو الرسل أو الأولياء لأن الله صادق في وعده ووعيده إنما الشفاعة عندهم لمن مات على صغيرة أو مات وقد ارتكب ذنباً نسي أن

(١) منهج الطالبين وبلاغ الراغبين ١ / ٥٢٣ .

(٢) انظر الصلة بين مذهب المعتزلة ومذهب الإباضية المقيمين في أفريقيا الشمالية (نيللو) نشر في كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية . ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ص

يتوب منه أو لزيادة درجته فى الجنة^(١) .

أما المنزلة بين المنزلتين أو صفة مرتكب الكبيرة ونعته فإن الإباضية تذهب فيها مذهبها خاصا يخالف كلا من مذهبي الأشاعرة والمعتزلة ويتابعون إلى حد ما فيه مذهب الخوارج .

لم يقل الإباضية بالمنزلة فى مرتكب الكبيرة لأنهم لو صاروا إلى ذلك وقالوا به لأنكروا أصلهم إنكارا تاما فنحن نعلم أنهم من تحت عباءة الخوارج ظهوروا وأهم أساس عند هؤلاء تكفير مخالفيتهم فيما يسمونه بالولاء والبراء ، وتمسك الإباضية بهذا الأصل وإن فسروا الكفر تفسيراً خاصاً . بمعنى أن تبعية الإباضية فى الأصل للخوارج - اعترافاً بها أو لم يعترفوا - جعلتهم يخالفون كلا من الأشاعرة والمعتزلة فى نعت مرتكب الكبيرة فيرفضون القول بأنه فى منزلة بين المنزلتين كما قالت المعتزلة والقول بأنه فاسق كما قالت الأشاعرة وقالوا بكفره كما ذهبت الخوارج وإن فسروا الكفر تفسيراً أخف . يقول الشيخ عامر بن على الشماخى فى كتابه أصول الديانات^(٢) وهو عمدة كتب الإباضية فى جبل نفوسه : ندين بالأما منزلة بين منزلة الإيمان والكفر .

أما المسألة الثانية التى كانت موضع خلاف بين الإباضية والمعتزلة فهى مسألة القدر وحرية العبد فى أفعاله مما يندرج عند المعتزلة تحت أصل العدل فالمعتزلة يقطعون بحرية العبد بينما تقول الإباضية بالحرية المحدودة فى صورة الكسب عند الأشاعرة وهذا يؤكد المبدأ القائل بأن الله خالق لأفعال العباد ومحدثها ومدبرها .

(١) انظر العقيدة الإباضية لعمر بن جميع - نشرها موتيلنسكى نلينو : كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ترجمة عبد الرحمن بدوى ص ٢٠٤ - ٢٠٧ طبعة القاهرة ١٩٦٥ وانظر جولدزيهير: العقيدة والشريعة فى الإسلام ١٧٢، ١٧٣ طبعة مصر ١٩٤٦ .

(٢) ص ١٢١ .

وقد جرت مناظرة بين إباضى ومعتزلى^(١) حول أفعال العباد . أهى خلق الله أم للعباد أفحم فيها الإباضى خصمه المعتزلى وكانت المناظرة معقدة وملتبسة حتى إن الخليفة^(٢) لم يستطع متابعتها فسأل أبا نوح ما الذى يقول لك هذا الرجل ؟ فأجابه أبو نوح : إن هذا المعتزلى يزعم إن لله خلقاً وأن له خلقاً غير خلق الله تعالى فيكون كل واحد منفرداً بخلقه فقال له الخليفة : لقد جعلت لله شريكاً يا هذا إذ قلت تخلق والله يخلق فهذا الشرك بعينه . وأنكر ذلك القول عليه وقبحه .

الإباضية وأهل السنة :

مع أن منطلقات المذهب الإباضى التاريخية تنطلق من أصل الخوارج إلا أن الإباضية أصبحت بالاجتهاد غير الخوارج ومن هنا اقتربت فى بعض عقائدها من الأشاعرة وأهل السنة .

من ذلك مثلاً قولها بأن معرفة التوحيد تكون عن طريق الشرع لا عن طريق العقل ، والعقل فيها تابع للشرع ومؤكد له . ذلك المبدأ الذى سجلناه عند حديثنا عن عقيدة التوحيد عند الإباضية .

والإيمان عندهم مقامات ثلاثة : التصديق والقول والعمل من ضيع واحدا منها بعد لزومه عليه فهو هالك لأنه حينئذ يكون كافراً كافر شرك أو كفر نعمة^(٣) ، ومن تعرى عن هذه المقامات كلها دخل تحت قوله تعالى : ﴿ أولئك طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾^(٤) .

(١) الإباضى هو أبو نوح سعيد بن زنفيل بن قسطلية والمعتزلى هو ابن حنينا حمو كان من مشايخ قطرار اللامعين انظر طبقات الدرجينى ١٦٨/١ وانظر الإباضية بالجريد ص ٤٥ ،

تأليف صالح باجية . الطبعة الأولى تونس . وكانت المناظرة فى عهد الدولة الصنهاجية .

(٢) الخليفة هو المنصور بن بلكين بن زيرى انظر السابق والصفحة .

(٣) السالى : مشارق أنوار العقول ٣٣٣ . (٤) سورة النحل : ١٠٨ ، ١٠٩ .

وإن كان فى قلبه وتعرض منه لسانه فهو من الذين قال الله فيهم من قوم فرعون ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ (١)
وأن تعرى عن العمل فقط دخل تحت قوله تعالى : ﴿الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ (٢) .

وهذا المنهج الذى سلكه الإباضية فى مقامات الإيمان وانتهوا فيه إلى حد بحيث لو تعرى واحد من الناس من هذه الثلاثة لكان أهون حكم عليه أنه من الكاذبين المفسدين الخاسرين يخالف رأى الإمام أبى حنيفة النعمان فى حقيقة الإيمان ودخول الأعمال فى مسماه من عدمه كما يخالف ما عليه أئمة السلف وعلمائهم .

والإباضية الذين لهم قول واحد فى حقيقة الإيمان خالفوا فيه أهل السنة نجد لهم ثلاثة أقوال فى زيادة الإيمان ونقصه - فمنهم من يوافق أهل السنة فى أن الإيمان يزيد وينقص لقوله تعالى : ﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ (٣) ومنهم من يرى أنه لا يزيد ولا ينقص متفقين فى ذلك مع المرجحة ، ومنهم من يرى أن الإيمان يزيد ولا ينقص .

وأما فى السمعيات فلا يختلفون فيها كثيرا عما ذهب إليه أهل السنة فهم مثلا يؤمنون أن كل مخلوق يموت بأجله كما يؤمنون بعذاب القبر - بخلاف الخوارج - وبحشر الأجساد مع الأرواح - خلافا للفلاسفة - ولا ينكرون شفاعة الأنبياء وشفاعة نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم بوجه خاص ويعتبرون أن من أنكرها فقد كذب بالقرآن ويؤمنون بالقضاء والقدر وهو أصل من أصول الدين عندهم وعقيدتهم فى ذلك عقيدة أهل السنة يقول قائلهم فى ذلك : « ندين بأن الله خالق كل شىء وندين بأن القدر خير وشره من الله وندين بأن الله خالق أفعال العباد ومحدثها ومدبرها » (٤) .

(٢) سورة العنكبوت : ١ ، ٣ .

(١) سورة النمل : ١٤ .

(٤) بهجة أنوار العقول ١٣٤ .

(٣) سورة هود : ٣ .

وقد رأينا كيف دافعوا عن عقيدة خلق أفعال العباد لله تعالى وناظروا فيها واعتبروا أنفسهم أهل حق واستقامة فى هذا المضمار يقول السالمى - وهو من كبار علمائهم - وذهب أهل الاستقامة - يعنى الإباضية - إلى التوسط بين الحالين فقالوا إن أفعال العباد خلق لله وهى لنا اكتساب فنشاب ونعاقب على اكتسابنا لا على خلق الله أفعالنا بدليل قوله تعالى : لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت^(١) . فالآية صريحة فى إثبات الكسب والاكتساب^(٢) فهم هنا يثبتون مذهب الأشاعرة .

ويكاد الجيظالى فى كتابه قناطر الخيرات^(٣) يردد كلام الغزالى فى هذه المسألة فى كتابه إحياء علوم الدين^(٤) إن لم يكن ينقله نصا .

وكما اتفقوا مع الأشاعرة فى مسألة الكسب اتفقوا معهم أيضا فى موضوع الاستطاعة وقولا إن الاستطاعة عرض يخلقه الله فى الإنسان يفعل به الأفعال الاختيارية . والاستطاعة عندهم وعند الأشاعرة مقارنة للفعل .

وبعد .. فهذه أهم معالم المذهب الإباضى فى جانب العقيدة يتفقون فيه مع المعتزلة أحيانا ومع الأشاعرة أحيانا وينفردون برأى خاص بهم فى أحيان أخرى . رأى نابع عن اجتهادهم معلنا عن استقلالهم وعدم تبعيتهم وأن اتفاقهم إن مع هؤلاء أو مع هؤلاء هو من قبيل الانفاق فى رأى لا من قبيل المتابعة والتقليد .

هذا وإذا كان الجانب العقدى فى المذهب الإباضى قد أغرانا بالكتابة فيه لجدارته بالبحث وغزارة مادته العلمية فإن موضوع الشريعة عندهم أو ما يسمى فقه الإباضية أشد إغراء لأنه أشد ثراء وأشد حاجة للكتابة فيه^(٥) .

(١) سورة البقرة : ٢٨٦ . (٢) السالمى : مشارق أنوار العقول ٣ / ٢ .

(٣) ٣٠٥ / ١ . (٤) ١١١ / ١ .

(٥) أشار الشيخ محمد أبو زهرة إلى ذلك وأشاد بجهود الإباضية فى الفقه وقال : « ولهم فقه جيد وفيه علماء ممتازون » المذاهب الإسلامية ص ١٢٧ .